٣ - جيل وجيل

للأستاذ محمود البشبيشي

... إذا كنت فى فكرك مع الفن الطبى ، كانت كل آثارك من نثر وشعر ، صوراً فنية ، لا تكلف فيها ولا تعمل ، والحيوية فى الأثر الأدبى ، ترجع إلى الحيوية الكامنة فى نفس الأديب ، وكلما كانت فطرية كان الأديب ينتزع من الطبيعة صوراً ، ثم يخلع عليها من طبيعته ألواناً ضاحكة واضحة لا تنافر بينها . . . وكان موهوباً فى كل ما يكتب ويقول ... وأنت يا بنى فى كل ما حدثتنى موهوب ...

كنت قادراً على سرد أفكارك بوضوح ... والحيوية فى الكاتب هى قدرته على عرض أفكاره فى غير ما تعقيد ولا ضعف

وكانت لأفكارك القدرة على التأثير ... والحيوية فى الأفكار هى قدرتها على التغلغل فى النفوس ... وكانت ألفاظك لا تحمل غير معانيها ... والحيوية فى الألفاظ هى وجودها فى المكان الذى إذا رفعت منه فقدت حيويتها ، لا تستطيع أن تنقص منها أو تزيد عليها ... لأنها وضعت كما توضع المقادير فى سجل الوجود لا نقص فيها ولا زيادة ! !

— جميل يا والدى أن جعلت للكاتب حيوية وللأفكار والألفاظ ، ولكنى أحب أن أعرف شأن هذه الحيوية فى الكاتب

— شأنها عظيم يا بنى ... فقد يختلف الكتاب باختلاف الحيوية الفكرية فيهم ... فهذا كاتب يملك ناصية الفكرة ولا يجد صعوبة فى عرضها ... فتنخلص خلوص ماء السيل لا يقف ولا يتعثر ، وتسطع كلماته أنواراً هى إشعاع نفسه وطبيعته ، فتراه فى أسلوبه ، وتلمس فى أسلوبه حيويته ... وينسيك سحره كل شىء إلا ما أراد هو أن يخبرك به ! !

وهذا كاتب يملك ناصية اللغة ولا يملك ناحية الفكرة والحيوية ... مهما أوجز أو أطنب وملأ كتابته بكل لفظ شارد خرجت أفكاره عارية ، لأن ألفاظها لا تكسوها ، أو لأنها لا تلبس ألفاظها تماماً ... مثل هذا الكاتب يا بنى تستطيع أن تسميه صانع ألفاظ ...

— وكذلك الشعراء يا والدى ... فإنك لتجد شاعراً تسمو شاعريته ، ويدق إحساسه ، فينتزع من كل مرأى الطبيعة صوراً مهما صغر أصلها ، يرتفع بها إلى القمة فى تصوير عجيب ، وتدفق غريب ، لأن فى نفسه طبيعة خلق معنوية شاعرية تكسو كل أفكاره حيوية ساحرة ، فيخرج شعره صافياً كضمير الوليد ، باسماً كثغر الغيد ، راقصاً كالقلب فى فرحة اللقاء ... وهو فى إحكام صياغته ، وارتباط معانيه بعضها ببعض ، وتسلسل أنغامه ، كأنه شىء حى تكاد تلمسه وتسمعه ، لأن نفس صاحبه وحيويته توزعت فيه نغما وصياغة وتسلسلاً وصفاء

— وأكثر من هذا يا بنى ، فالحيوية فى الشاعر إذا ست اجتمع لها من الإعجاز ما يفوق حيوية الكاتب ، لأنها هنا تقوم بأعمال كثيرة منها الوزن ، والقافية الرقيقة ، واللفظ الموسيقى ، والمعنى الشارد ، والروح الشعرى . على حين أنها هناك لا يطلب منها سوى صحة العبارة وسلامة المنطق . والحيوية فى الشعر لا تكتسب بالاطلاع كما قد تكتسب أحياناً فى النثر ، لأن الشعراء قوم خلقوا وفى طبيعتهم روح الشعر ، بل وفى منطقهم وفكرهم وحديثهم ونظرتهم . فمن قال الشعر من غير طبع وخلق شعرى خرج شعره يتعثر فى قيود الصنعة وفقد روح الشعر كما فقد تسلسل النثر ! أيحسبون أن الشعر حين يكتسب بالاطلاع ويشترى بالحفظ يكون شعراً بمعناه الصحيح ! ألا إن الحيوية الشعرية لا تكتسب أبداً ولا تباع . إنما هى تخلق مع الروح

— وكما توجد الحيوية يا والدى فى الأديب وأدبه ، توجد

مصباحه ويذهب إلى ظلمة القبور بدون بصيرة منيرة يسعى نورها بين يديه فى العالم الباقى غير المنظور

وعلى هذا ينبغى أن تقوم فى الناس دعوة إلى الإحساس بالنفس واليقظة الدائمة لها وتزكيتها والرفع من قيمتها ، وهذا لا يكون إلا بالدين والفن الرفيع : الدين العالى الطيبى المبنى على إسلام النفس لله البارئ والطبيعة الأستاذة ! والفن الرفيع الذى يخلق جواً يحضر للقلب بعض المعانى الغائبة التى ترى الإنسان وضعه الممتاز الفريد الطليق وسط ما فى الكون من المواد والقوى والمخلوقات العجيبة ... تلك المعانى التى تتراءى وراء بيان ذوى البيان النظيف ، وألحان ذوى الأصداء البعيدة ، وعيون ذوى الصفاء والإدراك ..

عبد المنعم خفوف

أيضاً فى الرسام وفنه ، وكما يختلف الأدباء باختلاف الحيوية فيهم يختلف الرسامون كذلك ، فإنك لتقف أمام لوحة زيتية لفنان موهوب ، امتزجت روحه بالفن وامتزج بها ، وسبح فى عوالم لا يصل إليها غير من رقت روحه ، وكشفت عن كل خفى من المعانى ، وخلع إحساسه الفنى على صور الطبيعة ألواناً من نفسه ، وخلعت صور الطبيعة على ألوانه ألواناً حية ، لو وقفت أمام صورة لمثل هـذا الفنان دبّ فى نفسك شعور غريب يملك حواسك ، بل يخرج بحواسك عن حقيقتها ، فتعتقد أن هذه الشجرة الزيتية شجرة حية تهتز وتتحرك ، وهذا النهر الملون تكاد تسمع له خريراً حلواً . ولا غرابة فى ذلك ، فحيوية الفنان هى سر حيوية لوحته الفنية . وأقسم أنى ما وقفت يوماً أمام لوحة لفنان موهوب ، تشع لوحاته إشعاعاً كله حيوية تتحرك وتؤثر وتعجب إلا وانقلب منطق إحساس . فأصبحت أسمع للألوان أصواتاً ، وألمس فى سكونها حركة . . . واللون الساحر يا والدى إذا وضعه فنان ساحر فى موضعه الفنى لا يظهر لوناً فقط ، بل يظهر لوناً وحقيقة حية !

— والحيوية فى الرجال يا بنى هى سر الرجولة الكاملة فى كل عمل يُعمل ، والرجل صاحب الحيوية هو الذى أحكم دقيق أمره وجليله ، وامتزجت صفاته السامية كثيرها وقليلها ، واحتوى من قوة الروح وهيبتها ما يشعر الجو الذى هو فيه هيبة غير مصطنعة وكانت فيه قوة ذات رحمة إذا قدرت ، وذات بطش إذا ظُلمت ! وارتفع بكل هذا عن كل مغمز وكل مقالة ...

— وحيوية الحقيقة يا والدى هى قدرتها على الذهاب بالباطل ، وإن الحقيقة لا تسمى حقيقة حتى تستطيع أن تقول للكذب أنت كذب فيقتنع ويخر ساجداً ، لأنه يعلم أنها تخاطبه بلسان الواقع والمنطق ... وقد تسكن الحقيقة أحياناً وتحتجب إذا كان فى نفس صاحبها ميل إلى الاستكانة إلى الواقع ولو كان ظلماً ! ! فتظل مقنعة تحاول الظهور كلما تمردت فى طبيعتها نزعة الحق ، فإن أفلحت فى ذلك خرجت تحمل قوتين : قوة الحق ، وقوة الإقناع . وكانت مدفوعة بدافعين : دافع استحقاق الوجود ، ودافع حب الانتقام من كل معارضة كاذبة ...

— وهـذا ما كان من أمر حقيقتك وحقيقة إخوانك شباب الأدب ، فقد ظلت ساكنة مقنّعة ، راضية بالواقع ، حتى تحركت طبيعة استحقاق الوجود فيها فقامت ثائرة تناقش ، وكان لها من ثورتها قوة تمطر مطرة من الأفكار والحجج ، كلها حق وكلها واقع فى القالبين السابقين ... ولكنى أرى أن قوتها ترجع إلى سر الحيوية الكامنة فى نفسك وفكرك ومنطقك . وإذا وجدت الحيوية فى شىء كان وجوده فى الحياة وجوداً للحياة نفسها

— أجل يا والدى كان لا بد أن يشعر الشباب بحقه فى الحياة الأدبية ، وبأن الواجب تشجيع الموهوبين منا ، فليس معنى الحياة أنك تحيا وتتحرك وتسكن ، وليس معنى الحياة أنك موجود فيها ... إنما الحياة الحقة أن تشعر هى بك ... فتكون فى الوجود وجوداً ، وفى الحياة حياة !!... وفرق بين أن تشعر أنت بالحياة ، وأن تشعر بك الحياة ، وفرق بين أن تكون خبراً من الأخبار وأن تكون الحياة خبراً من أخبارك !!... إن الرجل من امتلأ حيوية ، وظهرت حيويته فى أقواله صدقاً ، وفى أفعاله فلاحاً ، وفى نظراته صواباً ، وفى منطقه استقامة ، وكانت أقواله وأفعاله ونظراته ومنطقه هى حقيقته التى تقول إن صاحبى خلق فى الحياة حياة أخرى ... وجعلها خبراً من أخباره ! !

— هذا قول رائع يا بنى ولكن كيف يصل الإنسان إلى هذه المرتبة السامية ؟ وكيف يستطيع أن يكون نفسه هذا التكوين ؟

— إن الأمر على شىء من الخطر والصعوبة يا والدى ، فهو يحتاج إلى خلق شخصية خاصة به فلا يكون صورة لغيره ، وعليه أن يتعود الصدق ، وإن صعب اليوم تعوده ، فلا يدخل فى كل خبر كلامه ، وأن يجعل ألفاظه من نور ضميره ، لا من سواد رغباته وأطماعه ! ! لأن الرغبات إذا اسودت بسطت سلطانها وسوادها على كل عمل يعمله الإنسان ... وأن يعرف كيف يكيف صور الحياة التكييف الذى يجعلها باسمة ... وأن يخلق لنفسه مثلاً أعلى ... وأخيراً أن يبحث فى شخصيته وصدقه وضميره وتكييفه للحياة ومثله الأعلى حيوية تكفل له النجاح فى كل سبيل ينهجه ، وعمل يعمله ، وفكر يتأمله ... فتشعر الحياة بأنه موجود فيها ! !

ولكن ليس من السهل يا بنى أن تشعر الحياة بك ، وإن هـذه الصفات التى بينتها لا تجتمع لكل إنسان ، ثم إن الوصول إليها من الصعوبة بمكان ... وليس فى مقدور كل فرد أن يكون رجلاً ... يحسن مغالبة الحياة ومدافعتها ويجعل فكره وشعوره فى الناحية التى لا تقيم للخطوب وزناً ... وليس الرجل من يبكى لأن الطبيعة وهبته عيناً تدمع ! ويصرخ لأنها أعطته لساناً يصرخ ! ويبأس لأنه عجز ، ولأن الحر من طبيعته اليأس إذا

لم يقدر ! إنما الرجل من يخرج من عينه إشعاع كله حياة وابتسام لأن الطبيعة وضعت السحر فى البصر ، ويضحك لأنها وهبت فيه معنى الضحك ، ولا ييأس لأن الحياة لا يأس معها ... ولِمَ اليأس ... وليس فى الحياة ما تنقطع عنده حيلة من الخطوب ؟ فإذا نظر الإنسان فى أحوال حياته ، وصدق تأمله ، ولم يمنعه إحجام ، ولم يقيده تردد ، ولم يذهب بجلده رهبة ، استطاع أن يجعل كل أمر قريب المتناول ، هين المحاولة ...

— أجل ياوالدى ... كم مرت على أيام ، علم الله لم يك فيها ألم ولا يأس ... ولكننى استقبلتها وفى نفسى ألم ويأس فتمر إحساس نفسى الحزين كل صور الحياة فرأيتها عابسة قاتمة فشكوت منها قائلاً :

ظلام يبطن الأم ليس له سر ... وليل يبطن القبر ليس له سر
لعمرى كأن العيش متصل الدجى ... فأوله قبر وآخره قبر ! !
إذا كان فى موت الحياة مرارة ... فموت شعور المرء حياً هو المر !

وقلت :

إيه يا قلب كم تعذبت بالدا ... ء ودارت عليك شر الدوائر
ومشت فوقك الحياة بشوك ... بعد ما بعثرت عليك الأزاهر
وظلال من الفناء ترامت ... فوق جنبيك يا طريد المقادر !

وإن أسعد أيامى تلك التى نظرت فيها إلى الحياة بعين السرور فرأيتها فناً من السرور وجلست لها روحى قيثارة تغنى :

ليتنى بسمة على شفة الور ... د بفجر معطر الأنداء
وطيور تطير فى لهفة الشو ... ق إلى دوحها الحبيب الناءى
وابتسام يلوح كالأمل الحلو ... على ثغر كاعب عذراء
ليتنى أرغن يُغرِّدُ بالبشر ... ويكسو القلوب ثوب الهناء
ليتنى لم أكن من الطين كالنا ... س فأشقى بفكرة قمراء

— عرفتَ يابنى كيف تستقبل الحياة ، كما عرفت أن الحيوية هى سر وجود كل شىء ، وشعور الحياة بأنه حى فيها ، وعلمنا أن الكاتب من غير حيوية فيه ، يكون صانع ألفاظ ، وفهمنا أن الرسام تخرج لوحاته صامتة ميتة إذا حرم الحيوية الفنية ... وأدركنا أن الرجل من غير حيوية لا يكون رجلاً ... لأن أعماله تكون وليدة نقص فى الخلق والرأى والتأمل ... وقلنا إن حيوية الشاعر هى كل شىء فى شعره ... أما بعد فهل تتفيد الحيوية بسن؟ وهل هى وليدة اطلاع ومثابرة ؟ وهل ظهرت فى جيل وانعدمت فى جيل ... ؟

— أظنها يا والدى لا تتقيد بطول مراية ، وليست وليدة اطلاع ... كما أنها تكون فى كل الأجيال

فكما تحسها فى قول الزهاوى :

هناك نواميس بها أنا عالم ... وأخرى على جهدى بها لست أعلم
وما أنا شىء مثلما أنت فاهمى ... ولا أنت شىء مثلما أنا أفهم

وكما تلمحها فى قول الدكتور أبى شادى :

تتلاقى الشفاه وهى ظماء ... ثم تظمى على ارتواء وتنفس
وتتطيل اللقاء وهى سواء ... عن حياة بوجدها تتنفس !

وكما تتلألأ فى قول العقاد :

ليس بين الجنون والعقل إلا ... خطوة سائر ، فحاذر وأمسك
أول الخطوتين نسيانك النا ... س وأما الاخرى فنسيان نفسك

تظهر أيضاً فى شعر كثير منا . أفلست تحسها فى قول صالح جودت :

جريان الغدير يُجرى دموعى ... ومسيلُ الدموع يُدمى الهاجر
ملأ القلبَ من جمالك سحراً ... شفق الخد تحت ليل الذوائر

وفى قول مختار الوكيل :

حبذا أنت تطفرين مع الحلم ... بكون من الخيالات نأى
ترسلين الأنفاس وسنى كمينبك ... على وجنتىَّ كالأنداء

وفى قول القائل :

يودعنى القلب لو ودَّعك ... ويرجع لو قدرٌ أرجعكْ
لقد مزق الهجر زهر الغرام ... وضيعنى البعدُ إذْ ضيعكْ
ولكن تعود لروحى الحياةُ ... إذا عاد للقلب عهدى معكْ

* * *

أما بعد : فتلك أحاديث لا يسعنى إلا أن أقول إنها كشفت لعينى أبعاداً جديدة ، وعلمتنى أن الحقيقة لا تختفى وراء الظلام ، وأن الأجيال تتأثر بحيوية فكرتها ، ويؤثر فى حيويتها صدق التأمل فتفسد بفساده وتصلح بصلاحه ، وإن الضعف والفناء قد يكونان قوة سامية ، ما دام الضعف يولد قوة ، والفناء يجدد حياة ...

ورأيت فيها فلسفة تعارض فلسفة ، فآمنت بأن الحيوية فى كل شىء هى سر وجوده ، وليست الحياة ومعناها فى كونك خبراً من أخبارها — إنما معنى الحياة أن تكون هى خبراً من أخبارك ... آمنت يا بنى بكل ما تقول ... لأنك قيدت حقيقتى بكل ما تقول

محمود البشبيشى

حاشية أيضاً : كل ما جاء على لسان ولدى « حسين حسنى محمود البشبيشى » فهو من أفكاره ويكاد يكون فى ألفاظه